2. الفصل الأول

فكرة عامة عن طبيعة الشخصيات البارزة وطبيعة الشعب المصري

كم شخص عادي تواجد علي الأرض ؟

كم شخص وُلد ولادة عادية جداً ثم مر بطفولة عادية جداً ثم تلقي تعليم عادي جداً ثم مارس مهنة عادية جداً ثم تزوج من إمرأة عادية جداً ثم أنجب منها أطفال عاديين جداً ثم مضي به العمر حتي مات ميتة عادية جداً ؟ لا أحد يستطيع الإجابة ، فإذا حاولنا أن نحسب عدد الشخصيات العادية التي تواجدت علي الأرض من عهد آدم عليه السلام حتي اليوم لن نستطيع بل أعتقد أنه من المستحيل فالله وحده عز وجل هو الذي يعلم (لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿94﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿95﴾)[10]

أما إذا حاولنا أن نحسب عدد الشخصيات الغير عادية التي وردت في تاريخ البشرية فسوف نستطيع لأن الشخصيات البارزة قد فرضت نفسها علي كتب التاريخ لأنها بمشيئة الله غيرت وجه التاريخ ويأتي في مقدمتهم بالطبع الرسل والأنبياء ثم أشهر الخلفاء والقادة والزعماء والسلاطين والملوك وغيرهم من الذين نستطيع أن نحسب عددهم بل ولدينا معلومات كثيرة عنهم وعن السيرة الذاتية لكل منهم وإنجازاتهم وانتصاراتهم وأهم الأحداث التي كانوا سبباً في حدوثها ولقد كتب عن هؤلاء العديد من المؤرخين والمفكرين والأدباء وغيرهم

الناظر في التاريخ لا يلمح إلا الشخصيات البارزة :

فمثلاً يقول الكاتب علي أدهم في كتابه الرائع صقر قريش (إذا ابتعد المسافر عن مدينة أخذت تظهر له من بعيد الأمكنة العالية منها وكلما أوغل في الابتعاد وأمعن في السير صار لا يري إلا أكثر الأمكنة إصعاداً في الجو كذلك الناظر في التاريخ كلما ابتعدت به قافلة الزمن لا يلمح إلا الشخصيات البارزة)11 فمن المؤكد أنه كان يعيش في نفس توقيت حياة هؤلاء القادة العديد من الشخصيات ولكننا لا نعرفهم حالياً فمثلاً في عصر الملك مينا موحد القطرين كان هناك العديد من الشخصيات بل وصفوة القوم كما يقال في كافة المجالات ثم استمر ذكرهم مع مينا لمدة معينة ثم بعد فترة ما ظل الناس يتذكرون مينا ومعه مثلاً عشرين من حاشيته وكبار رجال دولته ثم بعد فترة أطول أصبح الناس يتذكرون مينا ومعه خمسة فقط من أشهر رجال دولته وهكذا ، اما الآن فلا أحد يعرف سوي مينا فقط وأنه موحد القطرين ، إلا إذا كان هناك متخصص في الآثار والتاريخ الفرعوني فقد يعرف شخصيات عاشت في زمن مينا من مقابرهم وآثارهم التي تم اكتشافها أو سيتم في يوم ما ، أما جميع المصريين حالياً فيعرفون اسم الملك مينا جيداً ، وإذا عدنا إلي الكتاب الممتع صقر قريش للكاتب علي أدهم سنجده قد ذكر أوصافاً أخري لهذا النوع من القادة حتي أنه كتب ما قاله أحد الأشخاص في الأندلس لرسول عبد الرحمن الأموي الملقب بصقر قريش ، وأعتذر عزيزي القارئ لك بسبب اللفظ الذي ذكره كما اعتذر كاتبه لأن هذا الشخص قال عن هؤلاء : أنه إذا بال أحدهم في وادي لغرق من فيه ، ولعله تعبير يحمل من المبالغة ما لا يطاق

---

[10] **94 ، 95 سورة مريم**

11 **صقر قريش (علي أدهم) صـ 74 باختصار**

يُقدمون نحو أهدافهم في ثقة المشاهد :

فلا شك أن لدي هؤلاء القادة البارزين جميعا القدرة علي التأثير في جموع الجماهير والشعوب وأهدافهم واضحة أمامهم تماماً ويسيرون في اتجاهها بلا تردد ومن أفضل ما قرأت عن طبيعة رؤية القادة لأهدافهم كتاب مدهش اسمه (من هدي القرآن) للأستاذ أمين الخولي رحمه الله وهو عبارة عن أحاديث إذاعية تم طباعتها بعد ذلك في كتاب ويتحدث أمين الخولي عن القادة الرسل بشكل عام مستمداً من كتاب الله عز وجل الهدي القرآني الذي يوضح طبيعة القادة الرسل فيقول الكاتب (إنما القادة أصحاب الرسالات قوم عمر الإيمان أفئدتهم وغمر اليقين أرواحهم فهم يتمثلون أهدافهم التي يسعون إليها مجسمة محققة لا يساورهم في ذلك شك ولا تخالج أنفسهم ريبة وهم لهذا يقدمون نحوها في ثقة المشاهد لا يثني عزمهم عما يطلبون أي شئ لأنه دان منهم وعلي منال أيديهم في رأي العين فكل صعب عند الناس هو عندهم هين وكل عسير علي الناس هو عليهم يسير ...)12 هكذا تحدث عنهم أمين الخولي وهو محق بكل تأكيد لأنك لو تأملت ما كان يهدف إليه أحد القادة البارزين ستجد من حوله لا يتخيلون إمكانية تحقيق ما يريده ويعتبرون أنها أحلام بينما هو يراها بالفعل محققة أمامه ويتقدم نحوها وسط ذهول جميع من حوله إلي أن يتأكدوا بالفعل ويشاهدون بأعينهم ما كانوا يعتبرونه أحلام قد تحقق والطريف أنهم هم الذين حققوه تحت قيادته

المتغير الوحيد :

والمدهش حقاً أن المتغير الوحيد في أي فترة من التاريخ هو ظهور هذا الشخص علي مسرح الأحداث فقط ، فلم يحدث أي جديد في أي شئ ، فهو نفس الشعب ونفس الأرض ونفس النهر ونفس الإمكانيات والبيئة ، وكل ما حدث أن ظهر منتوحتب الثاني أو بطليموس الأول أو ابن طولون أو محمد علي ، علي سبيل المثال لا الحصر ، فأنت تري الأمور والأحداث تسير في اتجاه معين ثم تغير اتجاهها بمشيئة الله علي يد أحد هؤلاء ، فكأن القدر أو إن شئت فقل أن القدر بالفعل يضع شخص معين بمواصفات معينة في مكان معين وزمان معين وله طموح وعزيمة وإرادة ليغير مجري الأحداث تماماً ولا يشك لحظة في عدم حدوث ما يريد لأنه كما ذكرنا يراه محققاً بالفعل

المُلك بيد الله سبحانه وتعالي :

وكل دولة **من الدول قامت علي أكتاف أحد هؤلاء وكل هذا طبعاً بمشيئة الله سبحانه وتعالي وتحضرني هنا أبيات من الشعر كتبها أبو العتاهية في مدح أحد خلفاء بني العباس بعد أن استقرت له الخلافة**

أتته الخلافةُ مقهورةً تكاد تجرجر أذيالها
فلم تكُ تصلحُ إلا لهُ ولم يكُ يصلحُ إلا لها
ولو ذهبت لأميرٍ سواهُ لزلزلت الأرضُ زلزالها

إنها إرادة الله أن تصل الخلافة إلي هذا الأمير ومن المستحيل أن تذهب لغيره ، فمن كان مقدر له أن يصل للحكم بمشيئة الله ليكون سبباً لأحداث أرادها الله عز وجل فمن المستحيل أن يصل للحكم غيره ، وقد يسلط الله

---

12 من هدي القرآن (أمين الخولي) صـ 48 (مكتبة الأسرة)

بعض الحكام علي بعض الشعوب وقد يهبه لمؤمن وقد يهبه لكافر ومثال ذلك الملك الذي كان علي عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام كما في الآية الكريمة {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ }13 فتأمل معي الآية الكريمة في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ستجد أن المولي عز وجل أعطي الملك لهذا الملك الكافر (آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ) وبالتالي لن ينازعه فيه أحد لأنها إرادة الله سبحانه وتعالي ، فقد يحصل علي الملك المؤمن وقد يحصل عليه الكافر بل وليس الكافر العادي فقط إذا جاز التعبير بل شديد الكفر والمدعي الألوهية والعياذ بالله ، {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[14] ، ومن الأمثلة شديدة الوضوح أيضاً أن فرعون كان له مُلك مصر وقد ذكر المولي عز وجل قصة فرعون مع سيدنا موسي عليه السلام في أكثر من موضع بالقرآن الكريم فعندما قرر فرعون مثلاً أن يقهر بني إسرائيل {وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ}[15] ، ورد علي لسان سيدنا موسي تعليقاً علي ما قاله فرعون {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[16] ومن هنا يتضح أن سيدنا موسي عليه السلام يعلم جيداً أن الأرض لله يورثها من يشاء وأن الملك في ذلك الوقت كان لفرعون بمشيئة الله وعلي المؤمنين أن يصبروا علي قضاء الله لأن العاقبة للمتقين في النهاية هذا والله أعلي وأعلم ،

<u>ملوك أقوياء يخلفهم ملوك ضعفاء :</u>

ولو تأملنا أي أسرة حاكمة من التي حكمت مصر سنجدها تبدأ بأحد هؤلاء الرجال من مؤسسي الدول ثم يتولي الحكم بعده أكبر أبناءه مثلاً أو أكبر أفراد العائلة من بعده وقد عاصر بالطبع تأسيس الدولة ثم بعد ذلك يموت ويتولي الحفيد الذي ولد وفي فمه ملعقة من الذهب وهو أمير ابن أمير ولم يعاصر الكفاح والنضال ويتصور أن ما هو فيه أمر واقع وقد يحيا حياة الترف والرفاهية ويدمر كل ما صنعه أجداده وهناك العديد من الأمثلة علي ملوك أقوياء خلفهم ملوك ضعفاء سنجدها بكثرة في التاريخ وطبعا الآباء لهم دور كبير في إعداد الأبناء للقيام بدورهم خير قيام وهم السبب الرئيس فيما سيصير عليه أبناءهم بعدهم فمثلاً الملك فيليب ملك مقدونيا قام بإعداد ابنه الإسكندر الأكبر الشهير ليتولي الحكم من بعده بل إنه قد جعل أرسطو شخصياً معلما له بالإضافة إلي التدريب علي القتال بمعرفة أفضل القادة المتخصصين وما إلي ذلك من الأمور التي يحتاجها القائد ليصبح علي مستوي الأحداث ، وسنجد في تاريخ مصر الكثير من الأسرات الحاكمة التي بدأت بملوك وقادة علي أعلي مستوي ثم تدهورت الأحوال بعد ذلك كما حدث مثلاً في عصر الأسرة 18 الفرعونية وفي عصر البطالمة وفي عصر الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية وعصر المماليك بل إن أسرة محمد علي نفسها أكبر دليل علي ذلك فقد بدأت بداية قوية علي يد مؤسسها محمد علي باشا الذي اقتبس من الغرب أصول الحضارة وليس مظاهرها

---

[13] (258) سورة البقرة

[14] **(26) سورة آل عمران**

[15] **(127) سورة الأعراف**

[16] **(128) سورة الأعراف**

وقشرتها الخارجية فلما تولي الحكم أبناءه بدأت تسوء الأمور في مصر ووصل بها الحال أن تورط أبناءه في الديون وتقليد الغرب في مظاهر الحضارة فقط حتي وقعت مصر تحت الاحتلال البريطاني ، وقد وصف الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني أولاد محمد علي وصفاً ساخراً حيث قال في كتابه الممتع (مصر من تاني) ما يلي : (ترك – محمد علي باشا – وراءه حكاماً دون المسئولية جهلة ومتعاظمين وعلي درجة عالية من التفاهة ورأوا أن محمد علي أضاع حياته في ما لا يجدي وقضي العمر في ما لا ينفع وأن الحاكم الفذ هو الذي يستمتع بالسلطة ويهنأ بالسلطان ومر سعيد وعباس ومصر في حالة أكثر انحطاطاً مما كانت عليه أيام المماليك فأغلقت المصانع أبوابها وتحول الجيش إلي أداة للزينة أيام التشريفة ووقت خروج المحمل وفي تشييع جنازات العظماء ، ثم جاء الخديوي اسماعيل وهو رجل طموح ولكنه في الوقت نفسه كان يحسب حساباته بدقة ولقد رأي أن محمد علي تعرض للهلاك عندما خرج يتحدى الغرب ولذلك قرر أن يهادن الغرب – وما دام الغرب قوياً فلابد من أن يكون السبب هو نمط الحياة التي يحياها الغرب فقرر أن يتحول بمصر إلي الحضارة الغربية ، وهنا أخطأ اسماعيل في الحساب لأنه لم يدرك أن الحضارة ليست عملية تجميل فحسب – ولذلك سنراه يغرق في الديون حتي أذنيه ليجعل من القاهرة قطعة من أوروبا ولقد نجح اسماعيل في ذلك بالفعل ، شق الشوارع والميادين وبث النافورات والتماثيل وأقام المتاحف والمعارض ومد الجسور علي النيل وشيد القصور الملكية علي أرقي هندسة العصر وافتتح داراً للأوبرا وداراً للتمثيل وألف مجلساً للشورى وجعل من اللغة الفرنسية لغة رسمية للصالونات والنوادي في عاصمة مصر ، ولكن بصره لم يمتد إلي أبعد من القاهرة وعينه لم تلحظ وجود فلاحين يعيشون في الريف عيشة أكثر تعاسة من عيشة الكلاب ، فلم يكن الريف في نظره إلا مخزناً للطعام ، ومستودعاً للبشر المستعدين دائماً للخدمة والصبر !!)[17] ، ونفهم مما سبق أن أبناء وأحفاد محمد علي باشا باستثناء أكبر أبناءه إبراهيم باشا قد نشأوا نشأة لم تؤهلهم إلي حد ما ليكونوا مثل محمد علي في علو همته وقدرته علي تحديد الأولويات واستغلال الإمكانيات ، وقد يسوقنا هذا للحديث عن الحرمان من الرفاهية وأثره في نشأة وإعداد الملوك بشكل عام

<u>هل الحرمان من الرفاهية أحد وسائل إعداد الحكام ؟</u>

كان الملوك قديماً يحرصون علي تدريب أبناءهم علي الرماية وركوب الخيل والسباحة واستخدام الأسلحة المختلفة وكانت رحلات الصيد من أهم وسائل تقوية الأبناء ورفع مستواهم في التحمل والصبر فهو يخرج في رحلة الصيد متعرضاً للعديد من الأخطار سواء الخاصة بأحوال الطقس من حر شديد أو برد قارص وقد ينام في أي مكان ويتعرض لمقابلة حيوانات مفترسة أو زواحف قاتلة ، وبالطبع كان الملوك يرسلون من يتابع هؤلاء الأبناء وينقذهم من هذه المخاطر ولكن هذا الوسط عموماً الذي يتواجد فيه الأبناء كفيل بأن يجعله صلباً ويتحمل قسوة العيش ويشتد عوده بعيداً عن قصور وحدائق أبيه مما يجعله بالتأكيد مستعداً لتولي شئون الحكم ، وحتي في العصر الحديث إذا لم تتوفر فرصة الصيد بهذا الأسلوب فإن ما تبقي من ملوك هذا العصر يلحقون أبناءهم بالكليات العسكرية حيث يتعلمون الانضباط فالطعام بمواعيد والنوم بمواعيد والتدريب الشاق بعيداً عن الرفاهية ،

[17] نقلاً عن كتاب (مصر من تاني) بقلم الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني رحمه الله – صفحة 110 ، 111

فالحرمان يفجر الطاقات الكامنة في الأبناء بل وفي الشعوب أيضاً فالشعب عندما يتم حرمانه من بعض ما يحتاجه مما يلزمه للحياة ستجده يحاول أن ينتجه بطريقة أو بأخري ، وكما يقال الحاجة أم الاختراع ، فإذا قمت بحل جميع مشاكل أبناءك بنفسك دون أن تتركهم يحاولون سوف تقتل فيهم الطاقات الكامنة

ومن أفضل الأمثلة علي فوائد الحرمان ما يقوم به الفلاح عندما يتوقف لفترة عن ري بعض أنواع المحاصيل مما يؤدي إلي تمدد جذورها في كل مكان بحثاً عن الماء فتزيد مساحة الامتصاص لديها ، وبعد فترة يقوم بعملية الري والتسميد فيغذي النبات بكمية أكبر من السماد التي يمتصها كلها لزيادة مساحة الامتصاص لديه ، أما إذا وجد النبات المياه قريبة دائماً فلن يحتاج إلي مد جذوره إلي أي مكان فيظل محتفظ بمساحة امتصاص صغيرة وبالتالي لن يحصل علي سماد كثير فينعكس ذلك علي الثمار ، كذلك البشر أيضاً إذا لم يتعرضوا للحرمان فلن يحتاج أحد منهم الطاقات الكامنة بداخله ،

وحتي لا نظلم محمد علي باشا في هذا الشأن تجدر الإشارة أنه كان حريصاً علي تربية أبناءه تربية عسكرية ولكن أحفاده بعد ذلك لم يكن مسئولاً عن تربيتهم فضاع استقلال مصر علي أيديهم وسوف أذكر قصة سعيد باشا مع قناة السويس لتوضح الكثير من الأمور

سعيد باشا والمكرونة وقناة السويس :

كان " محمد سعيد باشا " في صباه يميل إلي البدانة وكان أبوه " محمد علي باشا " حريصاً علي تربية أبنائه علي الحياة العسكرية والنشأة الرياضية ، فكان يحتم علي الصبي " محمد سعيد " أن يسبح ويعدو كل يوم مسافات طويلة ، ويأمر له بالقليل من الطعام الذي لا يسمن ولا يشبع ، وكان " ماثيو دليسبس " والد " فرديناند " صديقاً لمحمد علي ، يحبه من عهد وساطته عند الباب العالي في اختياره للأريكة المصرية ، وكان يأذن لأبنائه في زيارة القنصل لتوثيق عري المودة وإتقان اللغة الفرنسية[18] ، فكان محمد سعيد يجد في دار القنصل شبعه من المكرونة التي كان مشغوفاً بأكلها ، وكان صحبته لفرديناند الصغير خير شفيع للمهندس الفرنسي فيما بعد لاستجابه رجائه " الخاص بحفر قناة السويس " بعد طول تردد فيه علي أيام أبيه ،

واتفق أيضاً أن فرديناند دليسبس هذا كانت تربطه بالإمبراطورة " أوجيني " صلة قرابة ومودة ، فلولا المكرونة وهذه المصادقة التي ربطت بين دليسبس وبلاط فرنسا لما استطاع الرجل أن ينجح حيث أخفق غيره ، ولحبط العمل كله بعد الشروع فيه لولا اليد القوية التي كانت تنقذه من ورطة بعد ورطة في بلاط باريس ، إلا أن دلسبس قد استخدم كل ما في جعبته من الوسائل لإقناع سعيد باشا بفوائد مشروع قناة السويس ، – والجدير بالذكر أن جميع المحاولات لإقناع محمد علي باشا بحفر قناة السويس باءت بالفشل لعلم محمد علي أن هذه القناة قد تجر إلي مصر أطماع الدول الكبري ، ولم يتم إقرار المشروع إلا في عهد سعيد باشا ثم تم افتتاحها في عهد الخديوي اسماعيل ثم تم احتلال مصر في عهد الخديوي توفيق ، وهكذا ضاع استقلال مصر علي يد أحد أحفاد محمد علي باشا ، فمحمد علي وأمثاله من القادة البارزين في تاريخ مصر صنعوا حضارات وأقاموا دول وإمبراطوريات وعرفوا كرجال دولة كيف يستغلون إمكانيات مصر وإمكانيات هذا الشعب الذي ربما لا يعرفها عن

[18] نقلاً عن كتاب (ضرب الإسكندرية في 11 يوليو) بقلم عباس محمود العقاد – صفحة 75 – الطبعة الثانية 1983 – دار المعارف – بتصرف

نفسه كما قال أحد علماء الحملة الفرنسية علي مصر في كتاب وصف مصر وهو يصف الشعب المصري وهذا الوصف سنورده هنا كأول وصف للشعب المصري في هذا الفصل ثم سنستعرض معاً بعض ما كُتِب عن طبيعة هذا الشعب من وجهات نظر مختلفة

بعض ما ورد في كتاب وصف مصر عن طبيعة الشعب المصري :

(يوجد في مصر – شأنها في ذلك شأن بقية بلدان الشرق – خليط مضطرب من العادات والتقاليد ، تعود إلي أصول متنوعة ، وتنتج عن أسباب كثيرة ، وهل كان يمكن للأمر أن يكون علي نحو آخر في بلد يمكن القول بأن كافة الأمم قد اختلطت فيه ؟ فالعادات إذن تتنوع بنفس الطريقة التي تشكلت بها فئات السكان ، بمختلف أديانهم وأصولهم ، – – – ولا يمكنك أن تكشف ما يعتمل في نفس المصريين عن طريق ملامحهم ، فصورة الوجه ليست مرآة لأفكارهم ، فشكلهم الخارجي في كل ظروف حياتهم يكاد يكون هو نفسه ، إذ يحتفظون في ملامحهم بنفس الحيدة وعدم التأثر ، سواء حين تأكلهم الهموم أو يعضهم الندم أو كانوا في سعادة عارمة ، وسواء كانت تحطمهم تقلبات غير منتظرة أو كانت تنهشهم الغيرة والأحقاد ، أو يغلون في داخلهم من الغضب ، أو يتحرقون للانتقام ، فليس ثمة مطلقاً فعل منعكس : إحمرار في الوجه أو شحوب مفاجئ ، يستطيع أن يشي بصراع تلك العواطف العديدة التي تهزهم ، ويمكننا أن نلتمس أسباباً عديدة لهذا الجمود المذهل في الملامح ، قد لا يكون الطقس بعيداً عن هذه الحالة ، – – – ومع ذلك فإن الأسباب الرئيسية لذلك تكمن بالتأكيد في شكل التربية ، وفي الاعتقاد بالقضاء والقدر المنتشر بين كافة الناس ، كما تعود في النهاية إلي تعودهم أن يكونوا علي الدوام عرضة لنزوات الطغاة الذين يعم ظلمهم البلاد ، ففي كل يوم تنشأ أخطاء وبشاعات جديدة ، تصبح الغفلة معها بالنسبة للمصريين – والشرقيين عموماً – نوعاً من الحيلة لمواجهة هذا العسف ، فعندما يُعاقب الإنسان علي حركة أو بسبب نظرة أو أحياناً لمجرد الاشتباه ، كما لو كان ارتكب جريمة ، فإنه يصبح وقد اكتسب مقدرة عميقة علي الاستيعاب والتمثل بحيث تصبح هذه الأمور الجائرة حالات عادية ، لذا فلا ينبغي علينا أن نبحث عن مصدر آخر لأسباب هذا النوع من التسليم المستعذب للألم الذي يميز الشرقيين علي وجه العموم ، فالشكاوي والصيحات أمور لا فائدة منها أمام إرادة الطغاة ، ويعرف المصري كيف يمشي وقد أغضبه الألم ، وكيف يموت تحت عصا القواس دون أن يقول كلمة ، فهذه إرادة الله ، والله أكبر والله غفور ، وتلك فقط هي الكلمات التي تأتي علي لسانه عندما يبلغه نبأ نجاح لم يكن يأمله ، وهي نفسها التي تفلت منه عندما يبلغه نبأ كارثة كبري ألمت به ،

ويبدو خمول المصريين الملتصقين بمدنهم أمراً بالغ التناقض مع تقاليدنا ، حتي لنظنهم في البداية بلهاء أو معتوهين ، فتحركاتهم وأحاديثهم وأبسط حركاتهم بل ومسراتهم ، كل ذلك يشي بعدم اكتراث مذهل ،

ويرغم ذلك فتحت هذا القناع من السلبية البادية علي ملامحهم يكمن خيال ملتهب ، وسوف يكون من الظلم أن ننكر عليهم كل حساسية ، فعادة الصمت تجعل أحاسيسهم علي العكس – وحيث يمكنهم بذلك تركيزها – أكثر حدة ، كما أنها تعطي لأرواحهم دفعات من النشاط تجعلهم في بعض الأحيان قادرين علي الإتيان بأفعال بالغة الجرأة ، وفضلاً علي ذلك فإن الفكر يكسب بعمق ما كان يمكن أن يفقده لو كانت الروح متوقدة ، إن ملكة الانتباه ، والقدرة علي التذكر تذهب إلي أبعد مدي عند هؤلاء الناس الذين نخالهم غارقين في بلادة مطلقة – –

– – – إن كل شئ في هذا الشعب يقدم صورة من التناقض الواضح مع عاداتنا نحن الأوروبيين ، وهذا الاختلاف بلا جدال من صنع الطقس ومن صنع الأنظمة المدنية ، والمعتقدات الدينية كذلك ، كما أن غيبة القانون تكاد تشل مختلف ضروب الصناعة ، – –

ومن جهة أخري يمكن القول بأن كل فروع الصناعة بلا استثناء فريسة للاستبداد ، وفي نفس الوقت فإن التجارة مزدهرة ، وليس ذلك لأنها تلقي تشجيعاً من الحكومة ، ولكن أن موقع مصر وثراء منتجاتها يهيئان للتجارة معيناً لا ينضب ، وهذه الحرفة هي المجال الوحيد الذي يمكن أن يعد المصري بمستقبل زاهر ، فهي تقوده إلي الثروة في بعض الأحيان ، وهي – في هذا الصدد – الحسنة الوحيدة التي بقيت لهم ، حيث إن صفتهم كمواطنين قد أغلقت أمامهم طرق المجد والمراكز الكبري في وطنهم ،

انظروا إذن إلي أي حد تضاءل سكان واحدة من أجمل بقاع الأرض تحت هذه السيطرة الأجنبية وغير المشروعة ؟ إن الكوارث التي تنال منهم اليوم سوف تظل تثقل عليهم ، طالما ظلت هذه العصا الغليظة لمستغليهم غير الجديرين تدور عليهم ، ولسوف يظل المصري عبداً بائساً سلبياً خاملاً تدور به دوامات الشك دون أن يفكر في وضعه المحزن ، ولربما تكون بلادته تلك هبة من القدر ، إذ بفضلها لن يعذبه علي الإطلاق ذلك الإحساس بالآلام والمخاطر التي تهدده بلا انقطاع)[19] ،

ولنتأمل معاً كلمات جي دي شابرول أحد علماء الحملة الفرنسية الذين قاموا بتحليل عميق لشخصية الإنسان المصري والتي وردت بالجزء الأول من موسوعة وصف مصر ترجمة زهير الشايب حيث كتب بالنص ما يلي :

(– – وهذا يبرهن علي ما سبق أن قلناه من أن إصلاح مساوئ نظام الحكم سوف يؤدي – بسهولة فائقة – إلي أن يرد لهذا الشعب كل الفضائل التي فقدها ، بل التي لا يظنها هو نفسه كامنة فيه ، كما أن ذلك سوف يوقظ فيه كل مشاعر النبل والهمة ، وعظمة الروح التي خنقتها إلي حين تلك الأنظمة الشيطانية التي يرزح تحت نيرها ، إذ تعمل هذه الأنظمة الخبيثة علي تدمير أخلاقيات الأفراد بشكل محزن – – –)[20] ، ما سبق كان وصف الشعب المصري أثناء الحملة الفرنسية أما الآن فقد تغير بعض الشئ

<u>العاطفيون :</u>

ربما أهم ما يميز المصريين كما أراهم حالياً أنهم شعب عاطفي إلي أبعد الحدود ، فلا يجب أن تسأل المصري عن رأيه في موضوع ما أو في شخص ما ولكن يمكنك أن تسأله عن مشاعره تجاه هذا الموضوع أو ذلك الشخص ، فالمصري لا يؤيد ولا يعارض ولكنه يحب ويكره فإذا أحب نسي أو تناسي أي إساءة ممن يحب

والعاطفة قد تكون مشكلة كبيرة جداً في بعض المجتمعات فهي قد تضع شخص في غير مكانه الصحيح وقد تزيح أيضاً شخص من المكان الذي يناسبه فلا مكان هنا للقياس المنطقي بل المشاعر وحدها هي التي تتحكم وتأمر بل لا أريد أن أبالغ وأقول أن العاطفة قد تطيح أيضاً بالفطرة السوية

---

[19] نقلاً عن كتاب وصف مصر تأليف علماء الحملة الفرنسية

[20] نقلاً عن كتاب وصف مصر تأليف علماء الحملة الفرنسية

فإذا فكر مجتمع عاطفي مثلاً في ممارسة الحياة السياسية علي الطريقة الديموقراطية فإن الأحزاب التي سيشكلها المجتمع ستتلخص في أشخاص فهذا حزب فلان وهذا حزب علان فاجتماع الناس لن يكون حول مبادئ للحزب بل حول شخص يحبونه فنحن كما يقول الدكتور جمال حمدان في كتابه الممتع شخصية مصر ألفنا أن نكون رعايا لا مواطنين ، فنحن نحب الشخص الذي نثق به ونلتف حوله وترنوا إليه أبصارنا وتتعلق به آمالنا وقلوبنا وننتظر توجيهاته لنفعل أشياء نستطيع أن نفعلها بدون توجيهات ولكننا دائماً نحتاجها ونحتاجه ، وقد يحب الشعب المصري بعض ظالميه من الحكام لأنه شعب ودود وعاطفي ويتأثر بطول العشرة حتي مع من يسئ إليه أما العاطفة الوطنية أي حبنا للوطن فقد يصل بنا إلي نتائج لن أستطيع أن أصفها كما وصفها المفكر الكبير د جمال حمدان في كتابه الموسوعي الممتع شخصية مصر وتحديداً في الجزء الأول حيث يقول :

(، ، – – – فنحن كشعب – لابد لنا بصراحة أن نعترف – لا نحب فقط أن نمجد أنفسنا بحق وبغير حق ، ولكننا أيضاً نحب أن نسمع عن أنفسنا ما يريضينا ويعجبنا أو يرضي إعجابنا بذاتنا الوطنية وبشخصيتنا القومية ، بل إننا لنكره أشد الكره أن نسمع عن عيوبنا وشوائبنا ، ونرفض بإباء أن نواجهها أو نُواجه بها ، ولا تكاد توجد فضيلة أو ميزة علي وجه الأرض إلا وننسبها إلي أنفسنا ونلصقها بها ، وأيما رذيلة أو عيب فينا – إن هي وجدت علي الإطلاق – فلا محل لها لدينا من الإعراب أو الاعتراف ، وإن اعترفنا بها علي مضض واستثناء فلها عندنا العذر الجاهز والمبرر والحجة المُقنعة أو المُقنّعة ، ، ومن طريف ما يلاحظ في هذا الصدد أننا ، حين نرجع مثلاُ فيما نكتب عن أنفسنا إلي كتابات الرحالة والمؤرخين العرب في العصور الوسطي أو الكتاب الأجانب المعاصرين ننتخب منها فقط تلك الإشارات الطيبة والمرضية ونحشدها حشداُ كفضائل مصر[21] مهملين ببساطة شديدة كل الإشارات العكسية أو المعاكسة التي أوردها الكاتب نفسه والتي قد تكون أضعاف الأولي كماُ وكيفاً ، ليس هذا فحسب أو ليت هذا فحسب فما أكثر بعد ذلك ما نقلب عيوبنا عن عمد إلي مزايا ونقائصنا إلي محاسن ، بل أسوأ من ذلك قد نتباهي ونتفاخر بعيوبنا وسلبياتنا ذاتها ، – – – ويبدو عموماً أننا كلما زاد جهلنا بمصر كلما زاد تعصبنا لها ، بل الملاحظ أننا كلما ازدادت أحوالنا سوءاً وتدهوراً كلما زاد تفاخرنا بمجدنا وعظمتنا – – – والكلام لازال للدكتور جمال حمدان : أياً ما كان ، فنحن معجبون بأنفسنا أكثر مما ينبغي وإلي درجة تتجاوز الكبرياء الصحي إلي الكبر المرضي ، ونحن نتلذذ بممارسة عبادة الذات في نرجسية تتجاوز العزة الوطنية المتزنة السمحاء إلي النعرة الشوفينية الساذجة البلهاء أو الهوجاء ، وبديهي أن هذا الشعور يرجع في حالتنا إلي ميراث القرون والأجيال الكاتمة الكئيبة من الاستعمار والتبعية والاستبداد والمذلة والتخلف والفقر ، ومن هنا جميعاً تبدو الهوة هائلة والتناقض فاحشاً إلي حد السخرية بين واقعنا وحقيقتنا وبين ادعاءاتنا وطنطناتنا

والكلام لازال للدكتور جمال حمدان : حتي عن مستقبل مصر نحن إما متفائلون بإسراف يدعو إلي السخرية والإشفاق أو متشائمون إلي حد متطرف قابض للنفس ، ففي النظر إلي مستقبلنا نلاحظ غالباً أن هناك من جهة خطر المتفائلين إما بسذاجة أو بخبث شديد أولئك الذين يفضلون خداع النفس لراحة البال علي مواجهة الحقيقة المرة (في عينها) ، ومن جهة أخري خطر المتشائمين المنذرين الذين أفقدهم التوتر حس النسبية الصحيح هم

[21] ستلاحظ عزيزي القارئ أنني في الفصل الثالث من هذا الكتاب سأحشد فضائل مصر من عدة كتب كما يقول د جمال حمدان لأنني مصري علي أي حال

أيضاً ، باختصار مصر إما بخير دائماً ، أو في خطر أبداً ، وكلا الحكمين لا يري أو يضع الحقائق في حجمها الطبيعي السليم[22] ،

خصائص الشخصية المصرية :

وقد أورد أيضاً الدكتور جمال حمدان في كتابه الممتع شخصية مصر قائمة بخصائص الشخصية المصرية وذكر أنها (- - قائمة مربكة بقدر ما هي مقلقة فادحة ، ولكن بصفة عامة علي أية حال فلعل هناك شبه اتفاق علي بعض خصائص أساسية تعد أركان أو أقطاب تلك الشخصية ، أولها دائماً التدين ، وثانيها حتماً المحافظة ، وثالثها باستمرار الاعتدال ، ورابعها غالباً الواقعية ، وخامسها أحياناً السلبية ، وبهذا الشكل تبدو السلسلة كمتوالية تنازلية إلي حد ما ، تتدرج نسبياً من الموجب إلي السالب أو من القوة إلي الضعف ، وبذا أيضاً تتابع منطقياً فيما بينها ، بحيث تؤدي كل واحدة منها إلي تاليتها ، التي تترتب بدورها علي كل سابقاتها ، وفيما عدا هذا ، فلأن خاصية الاعتدال بالذات تمثل نقطة الوسط والارتكاز بين تلك الخصائص والنواة النووية في قلبها ، فلعل لنا من قبيل اليسر والتبسيط الأكاديمي أن نتخذ منها المظلة الجامعة والعنوان الرئيسي العريض الشامل لها جميعاً

فأما التدين إذا أردنا تفصيل ما أجملنا ، فسمة مصرية أصيلة وقديمة قدم الأديان ، بل سابقة هي للأديان ، ولعلها هي التي منحت المصري قوة داخلية ومقاومة خارجية وصلابة غير عادية ضد الكثير من الأخطار والمحن والمآسي التي تعرض لها عبر التاريخ ، سياسية كانت أو إجتماعية ، خارجية أو داخلية ، من استعمار الغزاة أو قهر الطغاة ، غير أن هذه الخاصية –يخشي البعض- كانت أيضاً مهرباً إلي حد ما من الصدام مع تلك الأخطار والتحديات ، ومن ثم قد في النهاية تفضي بنا إلي خاصية السلبية وتؤكد تشخيصها ،

ومهما يكن ، فإن التدين والنزوع الديني إذا جاز أن يرد في دوافعه إلي الزراعة طبيعة الحضارة الزراعية ، علي الأقل جزئياً ، فلعله أن يكون بدوره دافعاً جزئياً مثلها وبجانبها إلي الصبر والدأب والجلد والتحمل ، وهي الصفات التي تبدو عريقة القدم والجذور في التاريخ المصري ، ويكاد يجمع الكل بلا تردد علي إلتصاقها الشديد بالانسان المصري عامة والفلاح المصري خاصة

أما المحافظة ، بل والمحافظة الشديدة كما يشدد العقاد ، فتعني أن المصري مقيم علي القديم والتراث والتقاليد والموروثات ، ولا يقبل الجديد بسهولة ، وهذا يعني بدوره أنه تقليدي مقلد ، غير ثوري غير مجدد ، بل إنه –عند العقاد أيضاً- إذا ثار علي الإطلاق فإنما ليحافظ علي القديم والموروث ، أي أنه – للغرابة والدهشة ، وبصيغة نقيض النقيض – ثوري من أجل المحافظة

ومن المحافظة وعدم الثورية ، علي أية حال خطوة قصيرة ومنطقية إلي الاستقرار ، فالاستقرار نتيجة المحافظة ولكنه بالمقابل يعود فيدعمها ، ومن هذه الحلقة المفرغة أو اللولب الصاعد يتحقق الاستمرار إلي أبعد حد وينتفي التغير إلي حد بعيد ، وهكذا تنتهي الدائرة مرة أخري لتعود بنا حيث بدأنا بالمحافظة علي القديم وعدم التجديد ، ، إلخ وإذا كان ثمة من مصل مضاد نوعاً لهذه المحافظة المستمرة أو الاستمرار في المحافظة ، المستمرة أو الاستمرارية في المحافظة ، فهو الاعتدال ، وإن كان هذا نفسه غير بعيد عن المحافظة ، إن لم يكن حقاً امتداداً مباشراً لها ،

---

[22] نقلاً عن كتاب شخصية مصر للدكتور جمال حمدان

فالاعتدال المغروس المركوز في طبيعة المصري ، أياً كان أصله ، فيبتعد به عن التطرف الشديد يميناً ويساراً ، يبتعد به ضمناً وديالكتيكياً ولحسن الحظ عن التطرف في المحافظة ، بذلك يوفر له هامشاً معقولاً من المرونة والتلاؤم والتغيير والحيوية ، التي تضمن له علي أقل تقدير القدرة علي التطور البطئ ، التطور خطوة خطوة بالجرعات الصغيرة ، وبالتالي تضمن له البقاء الطويل علي المدي البعيد

وأخيراً وبحكم الاعتدال كان المصري العادي أو المتوسط أميل في الغالب إلي الوداعة والهدوء والدماثة والبشاشة ، وإلي الشخصية الاجتماعية الودود ، السلسة السهلة المنطلقة EXTROVERT غير المنغلقة أو المعقدة ، كما كان أجنح إلي التعاون منه إلي التنافس ، وفي الوقت نفسه أبعد شئ عن العنف والقسوة والدموية والمزاج الحمراوي الدموي

ومن الاعتدال بعد هذا نقلة لا شك قصيرة ومباشرة إلي الواقعية ، فالانسان المصري رجل عملي ، علمته البيئة والتجربة ، أي الجغرافيا والتاريخ ، احترام الواقع والالتصاق به وعدم الانفصال عنه أو التناقض معه ، فهو إلا في القليل النادر لا يهرب من الواقع سواء بالتدين المفرط (الدروشة) أو بأحلام اليقظة والتمني المجنحة (الغيبيات) أكثر كثيراً مما يتصادم معه ويتحداه ، وهو من ثم مطيع بالضرورة ، أكثر مما هو متمرد بالطبع ، فإذا ما عجز عن تغيير الواقع فإنه في العادة أو في النهاية يخضع له ويرضخ للأمر الواقع ، إلا أنه حينئذ قد يسخر منه للتعويض والتنفيس من هنا تأتي شهرته الداوية في السخرية التعويضية والتعويض بالتعريض بالواقع دون التعرض له ، وهو بدوره التناقض الخفيف الذي أفضي به في نظر البعض إلي الشخصية الفهلوية SMART التي تعوض عن عجزها العملي بالتذاكي المفرط SMARTIG واصطناع اللامبالاة أو إدعاء الحلم والتخفي وراء العقل والتعقل ، والنموذج المثالي أو التقليدي في ذلك هو علاقة الفلاح المصري بالسلطة والحكومة ، فهو يكرهها ويخشاها منذ قال الجبرتي (والمصري يكره الحكام في كل صورة حتي أدناها) إلي أن حدد العقاد علاقته بالحكومة كعلاقة عداوة مريبة ، لكنه مع ذلك يقبل بها وقد يتملقها ، إلا أنه حتماً يسخر منها ويتندر بها سراً وعلناً

ولقد يعود بنا هذا السلوك أو التصرف الواقعي إلي صفة الاعتدال كنوع من الإفراط في العقل ، إلا أنه أدعي وأفضي إلي السلبية كالنتج النهائي لكل الخصائص السابقة وكالحلقة الأخيرة في سلسلتها المترابطة المتداعية ، فالمحصلة النهائية لتلك المتوالية التنازلية من التدين إلي المحافظة إلي الاعتدال إلي الواقعية إنما هي منطقياً شخصية سلبية نوعاً أكثر منها إيجابية جداً

فهو –المصري العادي أو المتوسط– في الأعم الأغلب وفي أغلب الآراء يتجنب الصدام ويتحاشاه لاسيما في المواقف العدائية وبالتالي يؤثر السلامة علي المواجهة والسلام علي الصراع – – – –

تلك في عجالة سريعة مقتضبة ولكنها مركزة الخصائص الرئيسية الخمس التي تميز الشخصية المصرية في أغلب الآراء ، وإن جادل أو عدل البعض في بعضها أو كلها بدرجات متفاوتة ، ثم اختلفوا أكثر في تقييمها وتأويلها سلباً أو إيجاباً وقوة أو ضعفاً ، بحيث سنجد دائماً في الحساب الختامي الرأي المضاد والحكم ونقيضه وفي النهاية الصورة الوردية والصورة القاتمة)[23] ، هذا ما كتبه د جمال حمدان وننتقل الآن إلي ما كتبه العقاد عن طبيعة المصري

---

[23] نقلاً عن كتاب شخصية مصر للدكتور جمال حمدان

الطبيعة المصرية في أوهام الناس طبقاً لما كتب الأستاذ العقاد :

طبيعة المصري موضع دراسات كثيرة جنسية ونفسية واجتماعية وسياسية يقوم كثير منها علي الإشاعة والغرض وقليل منها علي التحقيق والإنصاف ، وليس ذلك لغموض أو تعقيد فيها فإن هذه الطبيعة واضحة سهلة ليس في الأمم العريقة كافة –فيما نعتقد– أمة أوضح منها وأسلس ولكنها قد احتجبت طويلاً لما أحاط بها من أقاويل الأمم المنافسة لها أو الموتورة منها ، وقد طال عهد مصر بمراس المنافسين والجيران الموتورين وطال إعراضها عما يصمونها به ويفترونه عليها ، حتي وقر في الأذهان وأصبح التعرض له بالتفنيد والتصحيح كالتعرض للحقائق المقررة والوقائع المكررة تبدو عليه شبهة الغرض والمحاباة من حيث لا تبدو علي تلك الأقاويل المفتراة ، ونحن نرجع إلي الصفات الكثيرة التي تواترت بها أقاويل الأمم الناقمة أو الأمم الحاسدة فنستعرضها صفة صفة ونحاول أن نجد فيها ما يقنع السامع أو ينفي عنه الشك والتردد فلا نجد بينها صفة واحدة تطرق الأذهان من ناحية الإقناع ، ولا نعجب لشئ عجبنا من سرعة الأكاذيب في النفاذ إلي الآذان وسرعة الأوهام بعد ذلك في الاستقرار بالأخلاد حتي إذا جاء دور التفنيد والتصحيح كان العجب الأكبر أن تلك الأخلاد التي استقبلت الأوهام بالإذعان والاستسلام تنقلب فجأة من السلاسة والهوادة إلي التصعب والتشدد في وجه الحقيقة ، كأنما الأوهام صديق مسالم ينزل بها نزول النصير المأمون الجوانب المحمود العواقب ، أما الحقيقة فهي عدو مهاجم يدك الحصون ويبدل المعالم ولا يطرق العقول أبداً دون أن تلتفت له وتثور عليه ،

ورأس الأكاذيب علي الطبيعة المصرية أنها طبيعة أمة لا تحكم نفسها بنفسها ولا تبال غارة الأجنبي عليها ، فمن من أعداء المصريين يشك في هذه الأكذوبة ؟ أو يكلف نفسه وهو يقذفهم بها أن يضاهي بينهم وبين غيرهم ليعلم مقدار الشبه في هذه الخلة بينهم وبين أبناء الأمم الأخري ؟

علي أنها كما قلنا رأس الأكاذيب وأيسرها تفنيداً عند النظر القريب فضلاً عن النظر البعيد ،

فليس شأن المصريين في هذه الخلة بمخالف لشأن الأمم كافة في العصور القديمة إذ هي كلها مزيج من غالب ومغلوب وأصلاء وغرباء ، لا تدري من أحقهم بوصف الوطني ومن أحقهم بوصف الدخيل ، إذا مضي عليهم جيلان أو بضعة أجيال ، ولقد كانت هذه الأمم جميعاً لا تبالي من يحكمها من أبناء البلاد أو غير أبناء البلاد ، لأنها كانت منهوبة مظلومة علي كلتا الحالتين ، وكانت تطيق الحاكم حتي يجاوز بها حد الطاقة فتثور عليه وتمالئ أعداءه – – – وقد أبطأت الإنسانية طويلاً قبل أن تخترع الديمقراطية أو الفكرة الوطنية ، وقد أصيبت جميع الأمم بما أصيب به المصريون من جراء هذا الإبطاء الذي لا ذنب فيه علي أحد[24]

ما سبق كانت رؤية العقاد لطبيعة الأمة المصرية ، وإليك ما كتبه جمال بدوي عن أكذوبة الاستبداد الشرقي ، ولعلك عزيزي القارئ تحاول المقارنة بين ما كتبه علماء الحملة الفرنسية وما كتبه جمال حمدان والعقاد وجمال بدوي مع حفظ الألقاب وتحاول أن تكون بنفسك فكرة عامة عن طبيعة هذا الشعب وطبيعة من حكموه والظروف التي مر بها علي مر التاريخ

---

[24] من مقدمة كتاب (سعد زغلول – سيرة وتحية) بقلم عباس محمود العقاد

أكذوبة الاستبداد الشرقي :

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ جمال بدوي في كتابه الممتع (في محراب الفكر) ما ملخصه :

هل صحيح أن الطغيان داء شرقي متوطن مثل البلهارسيا والانكلستوما ، وأن شعوب الشرق علي خلاف الشعوب الأوروبية يتقبلون الطغيان بدون شكوي أو تذمر لأنهم – في رأي أرسطو – مهيئون بطبيعتهم لأن يكونوا عبيداً ، وأن الرق بالنسبة لهم نافع بقدر ما هو عادل ، إن هذه المقولات التي أطلقها أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد جرت مجري الحقيقة المؤكدة لدي فلاسفة الفكر السياسي حتي مشارف العصر الحديث والأعجب أن تري أصداءها علي ألسنة مفكري الديموقراطية المحدثين مثل مونتسكيو الذي انتهي إلي أن الاستبداد نظام طبيعي بالنسبة للشرق لكنه غريب وخطر علي الغرب ، وأن الحكومة المعتدلة هي أصلح ما يكون للعالم المسيحي الغربي بينما الحكومة المستبدة هي أصلح ما يكون للعالم الإسلامي ، وبذلك انشطر العالم في نظر فلاسفة الغرب إلي قسمين ، قسم شرقي مهيأ بحكم طبيعته لأن يحكم حكماً استبدادياً لأنه في مرتبة الحيوانات أو العبيد ، وقسم غربي له أنظمة سياسية خاصة تجعل طبيعة الاستبداد أمراً صعباً ، فإلي أي مدي يمكن قبول هذه الأقوال التي انتقلت إلينا عبر المؤثرات الثقافية التي جعلت منها مسلمات لا تقبل النقض أو النقد واستقبلتها تربتنا العقلية عن رضا دون إدراك لمخاطرها علي وجودنا الإنساني وما تزرعه في نفوسنا من يأس وإحباط واستسلام إلي الواقع واعتبار الاستبداد قدراً مقدوراً لا فكاك منه شأن العلل الوراثية

نحن الشرقيين لا ننكر أن مجتمعاتنا القديمة عانت في بعض مراحلها التاريخية من حكم الطغيان ولكن من قال إن الشعوب الأوروبية في عهودها القديمة والوسيطة والحديثة أيضاً لم تتعرض لحكم الطغيان ؟ ولم تعان من القهر والاستبداد مثلما عانينا ؟ إن الحقيقة العلمية والتاريخية تشهد بأن الطغيان داء إنساني يفرض نفسه عندما تتهيأ له ظروف تاريخية معينة ، مثل الأنفلونزا تصيب الإنسان إذا تعرض لتيارات الهواء بصرف النظر عن كونه مصرياً أو ألمانياً أو استرالياً وليس من الحقائق العلمية في شئ أن يكون الطغيان حكراً علي الشعوب الشرقية (المتخلفة) وأن تبرأ منه الشعوب البيضاء (المتحضرة) لأن الحضارة الغربية في قمة ازدهارها لم تمنع ظهور أشد طغاة العصر الحديث من أمثال هتلر وموسيليني وستالين وسالازار ، ولكنها النظرة العنصرية الخبيثة التي صاغت الفكر الأوروبي منذ عصر أفلاطون وأرسطو حتي عصر هيجل وماركس

نعم نحن نعترف بأن الطغيان في الشرق أقدم منه في الغرب لسبب تاريخي لا دخل لنا فيه وهو أن الشرق أقدم وأعرق وأسبق

ففي مصر قامت أول حكومة مركزية في التاريخ بينما كانت الجزر اليونانية في طور الطفولة فكان من الطبيعي أن تعرف مصر الأنظمة السياسية وأن تنحرف هذه الأنظمة إلي ممارسة الطغيان ، فلما بلغت المدن اليونانية مرحلة البلوغ والنضج تطورت أنظمتها السياسية وسري عليها ما سري علي دول الشرق ، وعرفت اليونان الطغيان مثلما عرفته مصر ظهر فيها ما يعرف في التاريخ باسم عصر طغاة الإغريق الذي يبدأ باعتلاء الطاغية كبسليوس عرش مدينة كورنثة عام 650 قبل الميلاد وخلال قرن ونصف قرن من الزمان اكتوت المدن اليونانية بنار نخبة من عتاة الطغاة ، بل إن فقهاء اللغة يعودون بلفظ طاغية إلي جذور إغريقية – – ومعني ذلك أن اليونان التي تزهو علي العالم بأنها مهد الديمقراطية لم تسلم من جحيم الطغيان شأنها في ذلك شأن مصر

وغيرها من بلاد الحضارات القديمة وظهر فيها جيل من الطغاة قبل ثلاثة قرون من ظهور أرسطو الذي دفعه التعصب العنصري إلي جعل الطغيان صناعة شرقية بحتة ، وسار علي دربه المؤرخون الذين كتبوا عن الإسكندر الأكبر تلميذ أرسطو فقالوا إنه لم يكتسب صفة الطغيان إلا بعد أن جاء الشرق فرضع الطغيان من منابعه الأصلية وزعموا أن الفاتح المقدوني ظل يتمادي في طغيانه حتي جعل من نفسه إلهاً متأثراً بفكرة تأليه الحاكم في مصر ونسي هؤلاء المؤرخون أن فكرة تأليه الاسكندر نشأت معه منذ ولادته وأن أمه أوليمبياس غرست في عقله أنه ليس ابن فيليب المقدوني ولكنه ابن الإله زيوس كبير آلهة اليونان ، فلما جاء الإسكندر إلي مصر فاتحاً وقع في حبائل كهنة آمون الذين خدعوه وأفهموه أنه ابن الإله أمون – – –

الدكتور جمال حمدان في كتابه الجليل شخصية مصر في البداية لم ينكر أن الطغيان أو الاستبداد هو النغمة الحزينة في تاريخ مصر وأسوأ خط في دراما الشعب المصري ولكنه لا يلبث أن يتساءل هل هذا يعبر عن حقيقة شخصية مصر الاجتماعية الكامنة ؟ أهو يعني صفة موروثة أم مكتسبة خالدة أم عارضة ؟ ثم هل تنفرد به مصر أم يشاركها فيه غيرها ؟

ويجيب الدكتور جمال حمدان بأن ظاهرة الطغيان التعسة لم تقتصر علي مصر لا انفردت مصر بها سواء في الماضي البعيد أو القريب فإن الإمبراطوريات الاستبدادية في التاريخ القديم تفوق الحصر : بابل وآشور وفارس وفينيقيا ، الهند والصين وكل حضارات العالم الجديد ، إلخ ، أما اليونان وروما التي جعل البعض منها أسطورة الديمقراطية ومنبع الحرية فقد كانت علي العكس تماماً مثالاً بشعاً للاستبداد والظلم والتعذيب بل كانت مجتمعات العبودية الكلاسيكية وفي الإمبراطورية الرومانية بالذات كان الإمبراطور الطاغية – قيصر – يؤله كفرعون في مصر ولم يكن أقل منه طغياناً وبطشاً أما أوروبا في العصور الوسطي فقد كان المجتمع الإقطاعي نظاماً استبدادياً سافراً وكان الفلاح الأوروبي قنأ يعني عبدا ، – – أي أن الرجل الأوروبي كان أسوأ حالاً وحظاً من الإنسان المصري سواء في العصور القديمة أو الوسطي وحتي بالنسبة للرقيق الذي لم ينتشر في مصر نسبياً مثلما انتشر بأوروبا فقد كان يعامل برفق نوعاً إذا ما قيس بنظيره الأوروبي

ويري د جمال حمدان أن الاستبداد أو الطغيان حقيقة عرفتها معظم البلاد في معظم العصور علي اختلاف بيئاتها والفروق بين البشر أقل بكثير من التشابه الأساسي بل لقد كان تاريخ العالم حتي وقت قريب هو في الواقع الحكم المطلق والاستبداد بصورة أو بأخري وأن ما عرفته مصر في أغلب تاريخها من الطغيان إنما كان للأسف روح العصر وليس لحسن الحظ روح المكان وهو إذا كان قد طال في مصر بعد أن كان صفي في أوروبا مثلاً لعدة قرون فذلك بفعل الاستعمار الدخيل الآتي من أوروبا نفسها[25] .

وبعد أن استعرضنا بعض ما كُتِب عن الشعب المصري ومن وجهات نظر مختلفة ابتداء من علماء الحملة الفرنسية ثم د جمال حمدان والأستاذ العقاد والأستاذ جمال بدوي ، بقي لنا أن نلقي نظرة علي ما كتبه المؤرخ البريطاني ستانلي لين بول[26] في كتابه الممتع سيرة القاهرة حتي تزداد الصورة وضوحاً

---

[25] نقلاً عن كتاب في محراب الفكر لجمال بدوي

26 ولد المؤرخ والرحالة البريطاني ستانلي لينبول في مدينة لندن في الثامن عشر من شهر ديسمير سنة 1854 ودرس في جامعة أكسفورد وجامعة دبلن وبدأ حياته العملية كمؤرخ وباحث في الآثار ، وقد زار مصر أكثر من مرة وعمل بها وله مؤلفات عديدة تتناول تاريخها وتوج في سنة 1902 سلسلة مؤلفاته

المؤرخ ستانلي لين بول ووصفه الممتع لاحتفال المصريين بمولد سيدنا الحسين سنة 1882 م :

حيث كتب ما ملخصه : ومهما يقال عنا معشر الإنجليز من أننا نكون مكتئبين علي الدوام أثناء لهونا ، فإنه حتي ذلك الجمهور الذي اعتاد أن يشاهد مسرحيات إبسن سوف يقف مدهوشاً أمام تلك الاحتفالات الإسلامية ، فعلي حين لا توحي أعيادنا الدينية بأي مرح للرجل الإنجليزي العابس ، تجد الرجل القاهري يتمتع بأعياده الدينية إلي أقصي الحدود بالطريقة الرزينة الهادئة المعروفة ، وتلك الأعياد جد كثيرة ، والمولد في القاهرة ليس احتفالاً يستغرق يوماً واحداً وإنما قد يمتد في بعض الأحيان إلي تسعة أيام ، وكل سائح زار القاهرة لابد أن يعرف بعض هذه الأعياد ، من ذلك الاحتفال بالكسوة الشريفة ومرور المحمل بقافلة الحجاج إلي مكة ، هذه المشاهد جديرة بأن يراها كل منا ، إذا تصادف وقوعها في موسم السياحة ، فالسنة الهجرية لا تزال تسير وفقاً للتقويم الذي يعتمد علي القمر ، فهذا التقويم من شأنه أن يتغير فيغير معه الأعياد كلما دار الفلك دورته ، والواقع أنه قد يندر أن يمر أسبوع واحد دون أن يكون هناك عيد أو احتفال ، – – – والحسين مما لا شك فيه ينال حقاً من الاحترام والتبجيل في القاهرة ، والاحتفال بمولده من المشاهد التي يسر لها السائح الأوروبي كثيراً ، فليس هناك في الواقع أبهج ولا أروع من تلك المناظر التي نشاهدها في شوارع القاهرة وأسواقها في ليلة الحسين الكبري ،

والشئ الغريب حقاً أنه في إحدي ليالي الشتاء وبعد موقعة التل الكبير ، حينما كنت واقفاً –لأن الركوب كان إذ ذاك متعذراً– وسط جمع محتشد غفير في شارع الموسكي ، وجاهدت لأشق طريقي إلي ذلك الزقاق الذي يؤدي إلي بيت القاضي ومسجد الحسين ، أقول إنه من الغريب حقاً أنني لم ألاحظ هناك أية روح سيئة أو تعصب ، علي الرغم من وجود كثير من الأوروبيين الذين كانوا يجتالون في الطرقات البهيجة المزدانة بالأنوار في ليلة عيد ، ولكنك بدلاً من هذا كنت تجد النساء الإنجليزيات يتخللن الأسواق ، والضباط الإنجليز والسائحين يختلطون بالجمهور ، بل إنهم بلغوا في بعض الأحيان أبواب الجامع المقدس نفسه دون أن يمسهم أحد أو يبدي لهم أدني مضايقة بل أقل ملاحظة ، وفي بعض الأحيان قد تشاهد سيدة مصرية وهي تدعو بعض الأجانب وتطلب منه أن يصلي علي النبي وقد تذهل السيدة المصرية حينما يجيبها بقوله اللهم صل عليه ، علي أنه إذا لم يعرف ذلك الأجنبي كيف يجيب عن مثل هذه الأسئلة إجابة صحيحة ، فلن ينتج عن ذلك ضرر علي الإطلاق ، فإن طيبة القلب والطبيعة السمحة التي توحي بها مثل تلك الأعياد مما ينسي ذكري الحرب ، ومن المؤكد أنه لا يمكن أن يكون هناك جمهور إنجليزي يعتمد عليه ويوثق به يستطيع أن يسلك مثل هذا المسلك البديع مع وجود أقلية غير مرغوب فيها معه ، ولما انحرفت في أحد أزقة خان الخليلي الكبير كان ذلك المنظر يشبه إحدي صور ألف ليلة وليلة ، وإذا خرجنا من الخان وجدنا أناساً كثيرين يتدفقون إلي جامع الحسين ، وعلي قيد بضع خطوات نري بعض الرجال يدخلون إحدي الخيام وأحد المهرجين وهو يقوم بالتقليد في صورة تبعث علي المرح وفي سرادق آخر نجد القراجوز فنجد أفراداً قد أخذهم المرح حتي لتكاد جوانبهم تنفجر من كثرة الضحك ، وهم مهما رأوا ، وأينما ساروا ، ومهما قابلوا ، من الناس ومهما يكن فقرهم وهمومهم الخاصة كل ذلك لا يمكن أن ينال من طبيعتهم المرحة في ليلة الحسين المباركة ، ولعل أول ما يتميز به الجمهور المصري أنه يمكن تسليته في

في تاريخ مصر بكتاب (سيرة القاهرة) أو تاريخ القاهرة The Story of Cairo والذي قام بترجمته كل من د حسن إبراهيم حسن و د علي إبراهيم حسن وإدوار حليم وفي هذا الكتاب وصف رائع للعاصمة المصرية

سهولة تامة ، فإن أبسط المناظر وأقدم النكات تبعث فيه المرح والسرور[27] ، ويكفي أن تجعل الأوروبي المدقق يأسف علي ضبطه نفسه ليري كيف أن هؤلاء البسطاء يدخل المرح قلوبهم من أقل شئ[28]

[27] قد يكون ما كتبه المؤرخ ستانلي لين بول صحيحاً إلي درجة كبيرة بل وقد يكون مستمر حتي الآن فالكثيرين من هذا الشعب يتميزون بروح الدعابة ومن السهل تسليتهم ولا أدري هل هذا الوصف يعتبر من المزايا أم من العيوب فقد يمكن لأي حاكم إذا أراد أن يستغل ذلك بسوء نية فيشغل الشعب عن قضاياه الأساسية بأمور ثانوية يظل يدور في فلكها دون أن يشعر بما هو فيه مثل مباريات كرة القدم أو الأعمال الفنية والمهرجانات والاحتفالات وغيرها

[28] نقلاً باختصار عن كتاب سيرة القاهرة تأليف ستانلي لين بول – ترجمة د حسن إبراهيم حسن ، د علي إبراهيم حسن ، إدوار حليم – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة طبعة 1997